[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.12.4.3]

الإتّجاهات الإنسانيّة
في فقــه الإمام جعفر الصّــادق (ع)

الدكتور حسن عبّاس نصرالله

إنّ التشريع الإلهي المنبعث من كلمات الإمام جعفر الصادق (ع) موقّر بمحبّة الإنسانية، يلفّها الوهج وإنّه تصرّف معصوم، يستلهم طريق الرّسل، الذين كانوا يتحمّلون الأذىٰ، ويجزون السيّئة بالحسنة، ويقابلون الأحقاد بالمحبّة، طمعاً في بناء مجتمع إنساني حنون، ويبيّن انّ هذه الإستراتيجيّة الإنسانية لفقه الإمام الصادق كتبت الخلود لتشريعاته، وألبستها نظرة الحياة وسط اضطهاد مرير، ومحاصرة مشدّدة من قبل السّلاطين.

ثمّ مال إلىٰ الحديث عن انّ هذه الإنسانية تحليها فصول المجموعة الفقهيّة التي استنبطها الإمام الصادق (ع) من القرآن الكريم، والسنّة النبويّة، والعلم المعصوم، وتتبدّىٰ في مستويات عدّة، هي:

١ ـ مستوىٰ التكامل الفقهي.

٢ ـ المستوىٰ الإنساني.

٣ ـ المستوىٰ العلمي.

٤ ـ المستوىٰ السياسي.

وأخيراً يورد كاتب المقال سمات من الفقه الصادقي قائلاً: من خصائص الفقه الصادقي تعليل الشرائع باتّجاه إنساني يضمن تماسك المجتمعات، وهذه الخصائص منحتها سمة الإطلاق والخلود، وغدا منهلاً يردّه الفقهاء، يستنبطون منه قواعد شرعيّة.

إنسانيّة الفقه الصّادقي تنبعث من كل كلمة أطلقها، تطلُّ من قلب كل التشريعات التي أصدرها، تبرز في كل تعليل لشرائع الأحكام الالهية، تشرق من كل التصرّفات وقد حرستها العصمة، هذه الانسانية تحكيها فصول المجموعة الفقهيّة التي استنبطها الإمام الصادق (ع) من القرآن الكريم، والسُنّة النبويّة، والعلم المعصوم، وتتبدّى في مستويات عدّة:

١ ـ **مستوى التّكامل الفقهي.** التكامل من أجل الانسان، آلاف المواد قرَّرها الامام جعفر، شاملة المناحي الحياتيَّة في العبادات والمعاملات، مُنمَّقةً عن دستورٍ متّسمٍ بزخور التّفاعلات التي تزرع في الانسان إنسانيته، بعد ما حجَّرها الحكام، بل قتلوها داخل الفرد، بنزع حريّته، وتحذير إسلامه.

٢ ـ **المستوى الإنساني.** هو اتجاه مثالي يحنو على الانسان،

ويرفق به، ويصونه في نفسه وأشيائه، انطلاقاً من قول الرسول: «أتيتكم بالشريعة السهلة السمحاء» وحرصاً على التّناسب مع العقل، وعدم التّهاون في أحكام اللّه.

٣ ـ المستوى العلمي. بذر الامام الصادق، بذور العلوم الكيميائية والطبيعية، والطبّيّة والفلكيّة، فنمت البذور وأثمرت غرساتُها نهضةَ العلوم الذهبيَّة في العصر العبّاسي.

٤ ـ المستوى السياسي. قرَّر نظام الحكم، وفصّل أخلاق الفقيه والسلطان، وشرح العلاقة بينهما قال: «الفقهاء أمناء الرسول، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم»[١] ركزّ على عنصر العدالة لأنها مصدر السعادة، إنّ مبدأ العدالة أثار لدداً بين التيارات الاسلامية: الجبرية والقدريّة، الأشاعرة والمعتزلة، وقدماً قال سقراط: العدل ميزان اللّه، وثبات الأشياء بالعدل، وينبوع فرح العالم الحاكم العادل، وينبوع حزن العالم الحاكم الجائر»[٢].

ومع أنّ الامام الصادق كان صاحب الولايتين: الزمنية والروحيّة تغاضى عن الأُولى، وعصم نفسه من توليد الفتنة، وإراقة الدماء، فالنبي أو الامام المعصوم، لا تلغي نبوّتَه أو إمامتَه معارضاتُ النّاس وإعراضُهم عن تعاليمه، أو عدمُ الاعتراف بأحقّيته. عثا قومُ نوح وأخذهم الطوفان، وبقي نوحٌ نَبياً.

الإتجاه الإنساني:

الانسانيةُ نزعة عالميَّة تلغي الحدود الدوليَّة والعرقية والطائفيّة. ويصبح الناس إخوة في قارّات الكون توحدهم إنسانيَّة، لاتحدُّها سماء ولا أرض، أهدافها الدعوة إلى صوفيَّة تعشق السماء، وإلى محبَّة تعشق الخير، وإلى سعادة الدنيا تعشق الانسان في حركة صاعدة إلى مثاليَّة التصرفات البشريَّة، وتتعانق المفاهيم بين الروحانيّات والواقع المحسوس، الروحانيَّات العباديَّة تمنح المرء شفافية، وتصقل النفس وتهذّب الضمير، فيوغل المرء في دروب الانسانيّة، ويعيش في واقعه فكرة الرحمة بالضعيف، ومواساة العاجز والفقير، وسلخ الظلم عن المظلوم، والتّعاطف مع الانسان لمجرد إنسانيته فيغيب الشقاء من المجتمعات، فلا يكون هناك بائس ولا بؤس، ولا حاقد ولا حقد، ولا قتل ولا دماء... ويسود التواصل والتّراحم والتّسامح، وتشرق الأرض من ضحكات الأطفال، وابتسامات الرجال، وفرح النساء... وتصل الانسانية الى حد الغيرة على البشر، فيتمنّى كلُّ فرد لأبناء الأرض سعادة الدارين: نعيمَ الدنيا، ونعيم الآخرة، فيدعوهم بقناعاته إلى معتقده ليزحزحهم عن الشّقاء.

قال أحد دعاة الانسانيَّة: «سبحانّ اللّه! أمِنَ المعقول أن أبغضَ أخي لأنّه رفض أن ينجوَ من النّار على يدي؟ أما كفاه قصاصاً ماسيلاقيه من عذاب الآخرة لرفضه اعتناق عقيدتي»[٣] هذه المعاني الانسانيَّة قرّرها الامام الصادق في مبادئه قولاً ومارسها عملاً على مدى أربع وثلاثين سنة، مدَّة إمامته (١١٤ ـ ١٤٨هـ)، ونبَّه أتباعه إلى التعاطي معها بصدق حتى لاتتشوّه المبادىء، ردَّد على مسامعهم عبارة تعانديَّة، زاجرة، راحمة ترسم بثنائيّتها تحرك الفرد في النّمط المثالي «كونوا لنا زيناً، ولاتكونوا علينا شيئاً» من قبيل «لها ماكسبت وعليها مااكتسبت» ودعاهم إلى الحَسن والأحسن، وحذرّهم من القبح، وعظ أحد أتباعه وقد علم أنه يقترف الإثم «إنّ الحَسنَ من كلّ أحدٍ حسنٌ وإنه منك أحسن، لمكانكَ منّا، وإنّ القبيح من كلّ أحد قبيحٌ وإنّه منك أقبح»[٤]، وهذا يذكرنا بقول سقراط: «الحَسنَ الجوهر هو العدل لانه علَة كلّ حَسن، والجوهر هو القبح لأنّه، علّةُ كلّ قبح»[٥]، فالامام الصادق (ع) لم تبعدَّ حدودَ الأحكام الالهية، ولم يعطّلها في منحاه الانساني، بل انطلق من مفاهيم القرآن ليكسب الإنسانيَّة حروفاً في عباراته: ﴿لا إكراه في الدين﴾ أدرك الامام الصادق الأبعاد العطائيَّة للآية الكريمة في البناء التّسامحي للإسلام، وقرأ سيرة الأنبياء وعلومُهم عنده، فهو سليل النبوّات، حفيد محمّد (ص)، ومحمّد تقلَّب في الأصلاب الطاهرة، ﴿وتقلّبَك في الساجدين﴾[٦]، جدُّه السجّاد، وأبوه باقر العلوم لمح الصادق ومضات الإنسانيَّة تشعّ من مسيرة إبراهيم، خليل الرّحمن، الذي تشدّد مدّة في تطبيق الشريعة، بعدما كُشِفَ له، وشاهد العصاة المستترين يقترفون الذنوب، فطلب لهم الموت. فناداه الرحمن: ياإبراهيم العبادُ عبادي دعهم يعيشون، وجاءه العتابُ مرَّة ثانية عندما رفض استضافة مجوسي لإشراكه، ياإبراهيم لقد استضفتُه ثمانين عاماً، أما تستضيفه ليلة واحدة.. فكان إبراهيم بعد ذلك

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.12.4.3]

حليماً أوّاهاً منيباً ﴿إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾[٧] يجادلُ ربَّه في قوم لوط. تلك الانسانيَّة لاتتعدّى حدود اللّه إنما تطلب الرحمة للناس عَن طريق التوبة، عن طريق الصوفيَّة المتحدثة بلسان العزَّة. يا ابن آدم كن من شئت، وافعل ماشئت فتعال إليَّ فبابي مفتوح لك! وهل الدعاء الاَّ معنى من التوسُّل الخاشع يطلب الرحمة، لاتبديل أحكام اللّه.

استغل سلاطين الاسلام تشريعات إقامة الحدود للايقاع بأعدائهم، فوجّهوا التُّهم إلى المناوئين لسياساتهم وأقاموا عليهم حدود القتل ظلماً وجوراً، فراعت هذه التصرفات الامام الصادق، وكان ممن تعرَّضوا للتهم والدسائس، فأعلن تشريعاً يصون الانسان في مواقف الافتراء، قال الصادق «إنّ الاسلامَ قيّدَ الفتك»[٨]، وعندما كان باستطاعته أن يصون دم الفرد، كان يصونه مقابل التوبة استلهاماً لما فعله جدّه الامام علي (ع)، أتاه مذنب وطلب التطهير باقامة الحد، أجابه الامام. ياسبحان اللّه! أين باب التوبة، «لاطهارة أفضل من التوبة»[٩]. وإذا أقام الولاة الحدود راعى الاتجاهات الانسانيَّة في مراقبة التنفيذ، مرَّ الامام الصادق بالمدينة في يوم بارد، وإذا برجل يضربُ بالسياط، فقال: سبحان اللّه في مثل هذا الوقت يضرب!... فقيل له وهل للضرب وقت؟ قال: «نعم، اذا كان في الجمر ضرب في برد النهار، وإذا كان في البرد ضرب في حرّ النهار»[١٠]، ولايقام الحد على المريض، كما لايزاد في الحد جَلْدَة واحدة «لكل شيء حدّ ولمن تجاوز الحدَّ حدٌّ»[١١] ورصد النيَّةَ والندامةَ في العقوبات، قال: «إذا جاء السارق من قبل نفسه تائباً إلى اللّه عزّ وجلّ تُرَدُّ سرقته إلى صاحبها، ولا قطع عليه»[١٢] فاتّهمه الناس بتعطيل الحدود، فأجاب معلّلاً اجتهاده «إذا أقرَّ الرجل على نفسه فذاك إلى الإمام: إن شاء عفا، وإن شاء قطع»[١٣]، لأنّ الإعتراف ندم وتوبة، وثواب التوبة الغفران والعفو.

التشريع للحريّة:

أقرَّ الاسلام الحريّة في أبعادها الحياتية: عقيدة وسياسة واجتماعاً... وحارب العبوديَّة وأشكال الرق، وجعل العتق في أولويَّة الكفارات. رأى الامام الصادق أن الانسان نفس تعشق الحريَّة، ولاتقنع بماديَّة الجسد، وحاجاته العزيزيَّة. وأذهله فعل الحكام الذين قتلوا في الفرد المسلم حريته، أماتوها بالكبت والقهر بعد ما بدّلوا شريعة اللّه، وأوقفوا حركة المجتمع الحر، قابل الامام الصادق هذه التشريعات بالجرأة في التصرّف، أعاد إلى النفوس طمأنينة الاسلام وهزّ ضمير المنصور العبّاسي أكثر من مرّة، قابل سيفَ المنصور بابتسامة، ووعيدَه بكلمات واعظة، فأحيا في نفوس المسلمين فائت حريتهم، وأوغل في هذا المفهوم متحدثاً عن نوع آخر من الحريَّة الانسانيّة، تكمن في مشيئة الفرد ومكسبه وكيفيّة انتسابه إلى المجتمع، نهى عن إضافة النفس للغير لما فيها من عبوديَّة آنيَّة، والتحرّر ضد الاضافة قال الصادق مخاطباً الشباب: «يامعشر الأحداث، إتّقوا اللّه، ولاتأتوا الرؤساء، دعوهم يصيروا أذناباً، ولاتتخذوا الرجالَ ولاتبح من دون اللّه...»[١٤]، هذه الفكرة غدَت اتجاها فلسفياً في القرن العشرين يعتبر الاضافة تبعيّة وعبوديّة، تتجسم في عبوديّة الطبقات والمذاهب. السياسية والتقاليد.. ونهى الصادق عن إجارة النفس، لأن الاجارة فيها تحديد للرزق، قال: «لايؤاجر الانسانُ نفسَه، ولكن يسترزق اللّه عزّ وجلّ، ويتجر، فإذا أجّر نفسه فقد حظر»[١٥]، الاصلاح بين الناس: «فرِّق تسد» شعارٌ خرَّبَ المجتمعات، اعتمده الحكام للتمكن من القهر والتسلّط، وغدت هذه المقولة رمزاً للدول الكبرى تستخدمها للسيطرة على الشعوب تثير بينهم الشغب والخلافات والفتن، هذه الرذيلة ليست ثوبَ الفضيلة في متجر السياسة، لكن تشريع الامام الصادق رذلها وخطط لمحاربتها وعمل على وأد الفتن في مهدها، أمر أن يقتطع مبلغَ من مال المسلمين للاصلاح بين المتخاصمين استيثاقاً وإشاعة للمودَه والصفاء. وحرصاً على تنفيذ مضمون الحكم كان يضع أموالاً بتصرف القيمين على شؤون الناس، ويأمرهم بصرفها في الاصلاح بين أفراد الرعيَّة عندما تقع النزاعات، جاء في المناقب[١٦]: «قال ابن حنيفة: مرَّ بنا المفضّل وأنا وأختي نتشاجر في ميراث. فوقف علينا ثم قال: تعالوا إلى المنزل، فأتيناه وأصلح بيننا بأربعمائة درهم، دفعها إلينا من عنده، حتى يستوثق كل واحد منا. ولما أردنا أن نشكره قال: إنّها ليست من مالي. فالامام الصادق أودعني مالاً وأمرني إذا تشاجر رجلان في شيء أن أصلح بينهما وافتديهما من ماله».

أليست هذه التصرُّفات ترقى إلى أرفع درجات الانسانيّة

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.12.4.3]

الموغلة في الحضارة البشريَّة؟.

الإنسانية والحروب:

ألّفت الحروب كارثةَ الحياة على مرِّ التاريخ، فهي تسعى إلى إفناء الجنس البشري، لذلك كان الدينُ عند الله الاسلام، ومعناه السلّام، ضد الحرب تجنبها النبي محمد (ص) بالهجرتين، وأُكره عليها في بدر، والخندق وأُحد... بعدما قصده المشركون إلى مدينته. جافى الامام الصادق الحرب، وأبى ولوج متاهاتها، شهد الصراع بين الأمويين والعبّاسيين، تحرّكت المعارضة في خراسان، ولما أنس ابو سلمة لخلّال القوّةَ في رجاله أعلن الثورة ضدّ الأمويين، وبعث كتاباً الى الامام الصادق يبايعه خليفة للمسلمين، وصل الكتاب ليلاً قرأه ثم وضعه على المصباح فحرقه، ظن الرسول أن الامام أحرق الكتاب تغطيةً وستراً وصيانة للأمر، وخلب الجواب! قال الصادق: الجواب ماقد رأيت» فنظم ابن الأبآر هذه الحادثة مشعراً مشيراً إلى المعاني الانسانيّة للتصرّف الحكيم[١٧].

ولّما دعوه بالكتاب أجابهُمْ
بحرفِ الكتابِ دون ردٍّ جواب
وما كان مولاي كمشري ضلالةٍ
ولا ملبساً منها الردى بثواب
ولكنّه لله في الأرضِ حُجَّةٌ
دليلٌ إلى خيرٍ وحُسْنِ مآب

جبَّ الامامُ الصادق الفتنة على قدر استطاعته، لأنّ الخلافة الزمنيّة آنيَّة والخلافة الروحيّة، الإمامة أبديَّة، ولاتسقط ولي خلافة المسلمين أم لم يتولّاها، وتبقى الامامة المعصومة تحرسُ الدين، وتصونُ الانسانَ، عنصرَ الدين.

التشريعات الاجتماعيّة: في الحقول الاجتماعيّة صدرت عنه تشريعات اجتهاداتها متفرِّدة، تُرسّخ التعامل بين الأفراد، بروح الضمير الاسلامي.

أعرض نماذج للأمانة والدَّين والقَرضْ والرِّبا..

فالأمانة تتبعها (الوديعة)، لاتبيح خيانتها الفوارق المذهبيَّة والدينية، قال الصادق: «تردُّ إلى البَرِّ والفاجر»[١٨] ملغياً إباحة مال الفاجر في تشريعات كثيرين من الفقهاء.

أمّا الدّين فقال عنه «من استدان دَيْناً فلم ينو قضاءه كان بمنزلة السارق»[١٩] في هذه المشابهة تأنيب رادع للمَدِيّن بطالة معنوياً ومادياً، صفة الاحتيال والسرقة، وإقامة الحد المادي، أي العقاب الجسدي.

كما حثَّ على القَرْض الحسن، لما فيه من قضاء حاجات الانسان، وإشاعة المعروف في المجتمع، فالقرض الصَّدقة قال «لئن أُقرِضُ قرضاً أحبُّ إليّ من أن اتصدَّق بمثله[٢٠].

تشريع بني أيضاً على المشابهة، إذ قرن القرض بالصدّقة، وهمَّ بتفضيل القرض، إذ يحفظ المال لصاحبه، ويصون كرامة المقترض.

من خصائص الفقه الصادقي تعليل الشرائع باتجاه إنساني بضمن تماسك المجتمعات، لماسئل لماذا حرَّم اللّه الربا؟ أجاب: «لئلا يتمانع الناسُ المعروف»[٢١]، ومن خصائصها المميَّزة (التشريعات) ارتباطها بالاحكام الالهيّة، فالامام الصادق قال: «من حكم في درهمين بغير ما أنزل اللّه، عزّ وجل، فهو كافر»[٢٢] وقال في أحكام الشرط: «من اشترط شرطاً مخالفاً لكتاب اللّه عزّ وجلّ، فلايجوزُ على الذي اشترط عليه، والمسلمون عند شروطهم فيما وافق كتاب اللّه[٢٣] هذه الخصائص منحت الفقه الصادقي سمة الإطلاق والخلود وغدا منهلاً يرده الفقهاء يستنبطون منه قواعد شرعيّة، مثال قاعدة «من أتلف مال غيره فهو له ضامن» نستنبطه من قول الامام الصادق: «من أضرَّ بطريق المسلمين فهو له ضامن»[٢٤] أما اغتصاب أموال الآخرين فقاعدته قول الصادق: «كلّ مغصوبٍ مردود»[٢٥].

كان الامام الصادق (ع) يعالج الظواهر الاقتصادية بانسانية مثالية وممارسات متفرِّدة، ولا عجب فهو إمام معصوم سلك طريق الأنبياء.

أقص حكاية الامام الصادق مع الاحتكار: «جاء في كتاب الوسائل: في احدى السنين انقطع الطعام عن المدينة المنورة، وكان الناس يشترون طعامهم يوماً بيوم، فقال الامام الصادق (ع) لبعض خدمه: كم عندنا من الطعام؟ قال: مايكفينا أشهراً، قال: أخرجه، وبعه. فقال الخادم: ليس في المدينة طعام، قال الامام: بعه، فلما باعه قال له اشترِ مع الناس يوماً بيوم» وذكرت المصادر أيضاً أن أهل المدينة أصابهم قحط، حتى أن الرجل الموسر كان يخلط الحنطة بالشعير ويأكله،

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.12.4.3]

وكان عند الامام الصادق (ع) طعام جيد، فقال لخادمه: اشتر لنا شعيراً، فاخلط بهذا الطعام، وبع القمح، فإنّا نكره أن نأكل جيداً ويأكل النّاس رديئاً» هذه المواساة للنّاس هي دأب الامام الصادق وأخلاقه منهلها من جدّه علي، «أأقنع من نفسي بأن يُقال أميرُ المؤمنين ولا أشاركُهم في كارثة الدَّهر؟ أو أكونَ أسوةً لهُمْ في جُشوبَةِ العيش»[٢٦].

في حين دأب خلفاء المسلمين أي «الملوك والسلاطين» على انتقاء الأفضل، واغتصاب ما في أيدي الناس في حالي الرخاء والشدَّة، فكانت الأموال (السنيَّة) وهي أخصب الأراضي ، وأجود المقتنيات يصادرها الملوك يضمونها لأملاكهم أو يهبونها لنسائهم وأولادهم، لقد خصّوا أنفسهم بالطيبات وتركوا الرعيَّة تعاني الحرمان، سلام اللّه عليك أيها الصادق تمتلك الحنطة فتبدل بعضها بالشعير لتأكل كما يأكل الناس.

المنهجيّة الفقهيّة:

حدّد الامام الصادق (ع) استنباط الأحكام الشرعيّة من أدلتها الأصليّة: القرآن الكريم، والسنّة النبويّة، وسيرة الائمة المعصومين، والعلم المعصوم.

القرآن الكريم: ضمَّ كتاب اللّه توجيهات الأحكام بمجملها وبقي التفصيل للنبي، فبيَّن الأصول ومعظم الفروع، وظلّت قضايا جزئيّة لم تتوافر الدّواعي والبواعث لبيانها لعدم الحاجة إليها، ولأن حكمة التدرّج في التبليغ اقتضت ايضاح قسم من الأحكام، ونُشأةَ جملةٍ منها يبينها الأوصياء والعلماء.. قال الامام الصادق: «عُلّمنا من كتاب اللّه تعالى، إذ يقول: ﴿**وأنزلنا إليك الكتابَ تبياناً لكلّ شيء**﴾[٢٧]. وقال في موقع آخر: «كلُّ مايُحتاج اليه نعملهُ، أما سمعت قولَ اللّه تعالى ﴿**وكلّ شيء أحصيناهُ في امام مبين**﴾[٢٨].

السُّنَّة النَّبويَّة: نهل الامام الصادق من السنّة النبويّة باستمراريّة حتى أصبح وارثاً لعلم الأنبياء، وباح بهذا المخزون الثقافي قائلاً «عُلِّمنا من علم الأنبياء»[٢٩].

سيرة الأئمة: قبسَ من سيرة آبائه المعصومين وخصوصاً الامام علي (ع) جمع آراءهم الفقهيّة في فتاواه التي أغنت الفقه الاسلامي.

العلم المعصوم: شرح الصادقُ علمَ العصمة بقوله «علّمنا نَكْتٌ في القلوب، ونقرٌ في الأسماع»[٣٠] أي تفكُّرٌ وإلهام.

والعلم المعصوم يرفض العمل بالقياس المطلق المبني على المقدِّمات المتناقضة، روى الاصبهاني في حلية الأولياء: قال الصادق لأبي حنيفة: «يانعمان حدّثني أبي عن جدِّي أن رسول اللّه (ص) قال: «أوّلُ من قاسَ أمرَ الدين برأيه إبليس، قال: اللّه تعالى له: اسجد لآدم فقال: ﴿**أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾، فمن قاس الدينَ برأيه قرنه اللّه تعالى يوم القيامة بإبليس لأنّه اتبعه بالقياس»[٣١].

هذه الينابيع الصافية ظلّت عند الامام الصادق تتدفّق في تياراتها الالهية خالصة من شوائب المدلّسين الذين يحكمون بغير ما أنزل اللّه، وظلّت أحكامه تتوهّج لأن المقدرات الإنسانية غير المقدرات الالهيّة.

إنسانيّة الإتجاه العلمي:

أدرك الامام الصادق أنّ العلم أنجع وسيلة كي يكتشفَ الانسانُ ذاته، وما يحيط به من الموجودات لمعرفتها والسيطرة عليها والافادة منها، وادراك الحكمة من وجودها، ودَّ الوقوفَ على حقيقة الانسان بما هو إنسان، أي على حقيقته الجوهريَّة التي تختلف بتباين عن حقيقته: العرضيَّة، لجأ إلى العلم يستنطق كنوزه المخبوءة، فتمثّل العمل والوظيفة في إثبات الخالق، وتطوير المعرفة لترقية الحضارة، وأسّسته الأشياء.

عاش الامام الصادق حقبة كثرت فيها أحاديث المتفلسفة من مانويَّة ومزدكيّة ودهريَّة عملت هذه الفئات على إشاعة الالحاد، وإنكار الذات العليّة، إنبرى الامام الصادق يدحض أراءهم ويفند حججهم مستخدماً الاساليب العلميّة التي استخدموها على غير حقيقتها من أشهر رسائله ماعرف (**بتوحيد المفضّل**) وهي املاءات أملاها الصادق على تلميذه المفضّل بن عمر الجعفي ردّاً على عبد الكريم بن أبي العوجاء وأصحابه، أظهر الامام الصادق في مباحثه علوماً متطوّرة تنبىء عن معرفة متعمّقة للعلوم الطبيعية: الانسانية، والحيوانية، والنباتية تناول بمنهجيّة دقيقة هذه الموجودات من حيث التكوين، ورأى في كماليَّة خلقها كمال الخالق، وفي معرفتها تتكشف أسرارها، فيفيدُ منها الانسان، ويتخطّى كثيرا من المشتقات والآلام والعذابات النفسيّة والجسديّة.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.12.4.3]

بدأ بالانسان مرافقاً مراحل تطوره ووظائف أعضائه، والعناوين مكثّفة وموحية منها: (خلق الانسان وتدبير الجنين في الرّحم)[٣٢] (ولادةُ الجنين وغذاؤه) (حال المولود لو ولد فَهما عاقلاً وتعليل ذلك)[٣٣] (الحواس الخمس وأعمالها ومافي ذلك من الأسرار)[٣٤] (الجفن وأشفاره) (الفؤاد ومدرعته) (قوى النفس وموقعها من الانسان)[٣٥] وأبان وظائف الأعضاء مشيراً إلى نعمة الحواس الخمس، وذكر دور النور والهواء في أدراك الألوان والاصوات، ولايكون ذلك الّا بعمل وتقدير من لطيف خبير، وعلّل فائدة وجود الشعر والأظافر بتخفيف آلام الجسد قال الامام الصادق: «إعلم انّ آلام البدن وأدواءَه تخرج بخروج الشعر في مسامه، وبخروج الاظفار من أناملها»[٣٦] في حديثه عن النبات كشف نظريَّة متطوّرة أدركها العلم في القرن التاسع عشر، لنقرأ قوله: «يامفضّل لألقينَّ عليك من حكمة الباري جلّ وعلا وتقدَّس اسمه في خلق العالم والسِّباع والبهائم والطير والهوام وكل ذي روح من الانعام والنّبات...»[٣٧] لقد نسب الروح للنبات كما تنسب للأنعام، فللنبات حسٌّ وحركة اكتشفها العالم الفسيولوجي الفرنسي (بيشا) المتوفّى سنة ١٨٠٢م، وظهرت في القرن العشرين دراسات تكشف حركات النبات وانفعالاتها بالحرّ والبرد والظلمة والنور، وممارسة الضّحك والبكاء، هذه النظريات تدل على عظمة الخالق، وتؤكد العمق المعرفي لدى الامام الصادق في منهجة العلوم لتخدم الانسان.

خلاصة:

إن التشريع ـ التصرّف للإمام الصادق موقّرٌ بمسحة الانسانيَّة، يلفُّها الوهج، إنّه تعرُّف معصوم، يستلهم طريق الرسل، الذين كانوا يتحملون الأذى، ويجزون السيئة بالحسنة، ويقابلون الاحقاد بالمحبَّة، طمعا في بناء مجتمع إنساني حنون، هذه الاستراتيجيَّة الانسانيَّة لفقه الإمام الصادق كتبت الخلود لتشريعاته، وألبستها نضرة الحياة وسط اضطهاد مرير، ومحاصرة مشدّدة من قبل السلاطين، لأن الفقه الجعفري لايُقرُّ الحكام الظالمين تفي ايديولوجيته، ويلغي السلطان المتهاون بأمور الشريعة الجاهل بأحكامها، العابث بمقدرات الأمة وكرامتها ويقيم سلطانا فقيها عالما بالحلال والحرام، لذلك تعرَّض فقه الامام الصادق إلى الالغاء بطرق بربريَّة، تعرَّت من الحضارة، أوّلها قتل القادة من حملةِ هذا الفكر الفقهي بدأت بدسّ السُّمّ للمعصومين، فالامام الصادق نفسه قضى بالسُّمّ على يد المنصور العبّاسي وانتبهت بقتله حَملة هذا الفقه، ممّن عرفوا بشهداء المذهب الجعفري الشهيد الأول محمد بن مكّي الجزيني (١٢٢٢ ـ ١٢٨٤م) والشهيد الثاني زين الدين الجبعي (٩١١ ـ ٩٦٥هـ) والشهيد الثالث محمّد باقر الصّدر، وتخطَّت الحملةُ الرجالَ إلى الفكر نفسه فعمدت إلى إبادة المؤلفات بين إتلافٍ وإحراق، أكدت كتب التاريخ، إن الجزّار وحده أحرق أكثر من ثلاثَ عشرة ألف مخطوطة صادرها من جبل عامل وأحرقها في أفران عكّا.

ثمّ فرضوا الحظر على مسافرة الكتب الفقهيَّة ومنعوها من التّجوال بحريَّة في البلاد الاسلاميّة.

رغم هذه الاضطهادات ألف اللون الانساني الذي صبغها درعاً واقياً سقاها (ماء الخضر) وحماها من الفناء، حتى أنّ بعض التشريعات في الطلاق والإرث والمعاملات سيطرت على فتاوى سائر المذاهب.

المصادر والهوامش:

١ ـ الاصبهاني، أبو نعيم أحمد: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٢، ص ١٩٤.
٢ ـ Diogines, Laertius. I, 32
٣ ـ وليم تسفليس: بلاغة العرب: ٢٥٣.
٤ ـ مناقب آل أبي طالب ج٤، ص ٢٢٦.
٥ ـ فخري: ماجد، دراسات في الفكر العربي.
٦ ـ الشعراء: ٢٦/ ٢١٩.
٧ ـ هود: ١١/ ٧٥.
٨ ـ المناقب: ٤/ ٢٢٩.
٩ ـ مغنيّة، محمد جواد. فقه الامام جعفر الصادق: ٢٧٢/٦.
١٠ ـ نفسه: ٢٧١/٦.
١١ ـ نفسه ٦/ ٢٥٦.
١٢ ـ نفسه: ٢٧٢/٦.
١٣ ـ نفسه: ٢٦٢/٦.
١٤ ـ نوادر الراوندي: ١٩١/٢.
١٥ ـ فقه الامام جعفر: ٢٥٨/٤، الحر العاملي: وسائل الشيعة ١٧٦/١٢.
١٦ ـ المناقب: ٢٧٢/٤.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.12.4.3]

١٧ ـ المناقب: ٤/ ٢٢٩.
١٨ ـ فقه الامام الصادق ٤/ ٢٠٥.
١٩ ـ وسائل الشيعة: ١٢/ ٨٦.
٢٠ ـ فقه الامام الصادق: ٤/ ٨، وسائل: ٨٧/١٢.
٢١ ـ حلية الأولياء: ١٩٤/٢.
٢٢ ـ فقّه الامام الصادق: ٦٥/٦.
٢٣ ـ نفسه: ٢/ ١٦٢.
٢٤ ـ نفسه: ٢/ ٥٠.
٢٥ ـ وسائل: ١٧/ ٢٠٩.
٢٦ ـ نهج البلاغة: ٢/ ٨١.
٢٧ ـ المناقب: ٤/ ٢٥٠.
٢٨ ـ نفسه: ٤/ ٢٢٧.
٢٩ ـ نفسه: ٤/ ٢٢٧.
٣٠ ـ نفسه: ٢٣٦.
٣١ ـ حلية الأولياء: ٢/ ١٩٧.
٣٢ ـ توحيد المفضّل: ١٢.
٣٣ ـ نفسه: ١٥.
٣٤ ـ نفسه: ٢٢.
٣٥ ـ نفسه: ٣٨.
٣٦ ـ نفسه: ٣٢.
٣٧ ـ نفسه: ٣٥.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.12.4.3]